

## GHASSAN KANAFANI

### AL MIDFAA3

غسان كنفاني - المدفع - دمشق 12/8/1957

لقد عرفه الجميع. وكادوا أن يعهدوا وجهه كجزء لا ينفصل عن القرية كلها: وجهه المربع يعترضه حاجبان يتصلان ببعضهما بأخدود يعين طرف أنفه العلوي، وأنفه المفلطح تدور بأسفله دائرتان واسعتان فوق شارب رمادي كثيف، يتدلى، فيخفي شفته العليا. أما ذقنه فلقد كانت عريضة حادة، كأنها قطعت لتوها من صدره، ومن ثم، بردت رقبته التخينة برداً.

إن سعيد الحمضوني نادراً ما يتكلم عن ماضيه، إنه دائماً يتحدث عما سيأتي، وما ينفك يعتقد أن غدا سيكون أحسن من اليوم، ولكن أهل السلمة يتناقلون فيما بينهم، بشيء كثير من المبالغة، أخبار سعيد الحمضوني أيام كان يقود حركات ثورية في 1936، يقولون - هناك في القرية - إن سعيداً أطلق سراحه من المعتقل لأنه لم يدين. ويقال إنه لم يقبض عليه بعد، ومهما يكن، فهو الآن يملأ القرية، ويربط الصبيان كل أحاسيسهم وتخيلاتهم التي يرسمونها للرجل الممتاز. وليد المغامرة القاسية.

لقد عاد سعيد مؤخراً من يافا، وأحضر معه رشاشا من طراز الماشينغن كان قد قضي قرابة أسبوع كامل يجمع ثمنه من التبرعات، ومع أن سكان السلمة كانوا على يقين كبير أن ثمن مدفع من هذا الطراز لا يمكن أن يجمع من التبرعات، فلقد آثروا أن يسكتوا، لأن وصول المدفع الرائع أهم بكثير جداً من طريقة وصوله،

فالقريبة في أشد الحاجة إلى أي نوع من أنواع السلاح، فكيف إذا حصلت على سلاح من نوع جيد؟

لقد عرف سعيد الحمضوني ماذا يشتري! إن هذا المدفع، مدفع الماشينغن، كفيل برد أي هجوم يهودي مسعور، إنه نوع راق من السلاح، والقريبة في أشد الحاجة إليه. فلماذا يفكرون في طريقة وصول المدفع؟ ولكن سكوت رجال السلمة، لا يعني سكوت نسائها، لقد بقيت المشكلة بالنسبة لهن تلح إلحاحاً قاسياً، ولما لم يجدن من يدلهن على حقيقة الأمر، استطعن أن يقنعن أنفسهن أن سعيد الحمضوني كان قد سلم في ثورة 1936 مدفعاً من هذا الطراز أبلى من خلفه بلاء حسناً، ثم خبأه في الجبال إلى أن آن أوان استعماله من جديد. ولكن التساؤل بقي متضمناً في أعماق أعماق سكان السلمة، لم يكن من اليسير أن يجمع الإنسان ثمن مدفع من طراز الماشينغن.

إذن فمن أين أتى سعيد الحمضوني بهذا المدفع؟ نعم. من أين؟

المهم. إن هذا المدفع الأسود صار قوة هائلة تكمن في نفوس أهل السلمة، وهو يعني بالنسبة لهم أشياء كثيرة، أشياء كثيرة يعرفونها، وأشياء أكثر لا يعرفونها. ولكنهم يشعرون بها، هكذا، في إبهام مطمئن. إن كل كهل وكل شاب في السلمة صار يربط حياته ربطاً وثيقاً بوجود هذا المدفع، وصار يستمد من صوته المتتابع الثقيل، أثناء تجربته في كل أمسيتين، نوعاً من الشعور بالحماية.

وكما يرتبط الشيء بالآخر، إذا تلازما، ربط الناس صورة المدفع بوجه سعيد الحمضوني المربع، لم تعد تجد من يفصل هذا عن ذلك في حديث الدفاع عن السلمة، إن سعيد الحمضوني أصبح الآن ضرورة مكملة، بل أساسية، للمدفع،

وعندما يتحدث الناس عن سعيد، كانوا يشعرون أنه أداة من أدوات المدفع المعقّدة. شيء كحبل الرصاص، كقائمتي المدفع. كالماسورة: كل متماسك لا تتفصل أطرافه عن بعضها. بل وأكثر من ذلك لقد صار يربط سعيد الحمضوني حياته نفسها ربطاً شديداً بوجود المدفع. كان المدفع يعني بالنسبة له شعوراً هادئاً بالطمأنينة، شعوراً يوحي بالمنعة: فهو دائم التفكير بالمدفع، دائم الاعتناء به، تكاد لا تراه إلا وهو يدرّب شباب القرية على استعماله، ويدلهم في نهاية التدريب على المكان الذي وضع فيه خرقة لمسح المدفع، هذا المكان الذي سيصير - فيما بعد - معتاداً.

531 words